مناهج علم الآثار في الأردن منذ عام 1800 حتى الآن

عمر الغول*

https://doi.org/10.54134/jjha.v16i3.706

ملخص

اتبع المشتغلون بآثار الأردن مناهج علمية مختلفة في التنقيب عن آثار الأردن ودراستها منذ بدايات القرن التاسع عشر حتى اليوم. وتأثرت هذه المناهج بالتيارات السياسية والدينية السائدة لدى الباحثين الغربيين في آثار جنوبي بلاد الشام، وبالتقدم العلمي الذي شهده علم الآثار في مئتي السنة الأخيرة. يستعرض هذا البحث المناهج المختلفة التي اتُبعت في توثيق آثار الأردن ودراستها منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى اليوم، مشيرًا إلى سماتها الأساسية، وخلفياتها الفكرية، وأهم الآخذين بها. ويتناول البحث في جزئه الثاني المناهج التي اتبعها الأردنيون في تعاطيهم مع الآثار منذ القرن التاسع عشر إلى الآن، وينتهي بنظرة استشرافية إلى المستقبل، ترسم المسار المنهجي الذي يمكن أن يأخذ به الآثاريون الأردنيون في العقود القادمة، بحيث يتخذوا أحدث المناهج العلمية في مجال علم الآثار، وسيلة لإبراز مساهمة علم الآثار في تشكيل الهوية الحضارية الأردنية.

الكلمات الدالة: مناهج ، إثنوغرافيا، علم الآثار الإجرائي، حسبان، علم الآثار التوراتي، علم الآثار التطبيقي.

مقدِّمة:

يستعرض هذا البحث المناهج المختلفة التي اتُبعت في توثيق آثار الأردن ودراستها منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى اليوم، مشيرًا إلى سماتها الأساسية، وخلفياتها الفكرية، وأهم الآخذين بها، دون أن يقصد، بطبيعة الحال، إلى استقصائهم، وإنما سينحصر البحث في المناهج نفسها. ولما تأثر العمل الأثري في الأردن في رؤاه ومناهجه بالعمل الأثري في فلسطين، فسيتطرق البحث إلى مناهج علم الآثار في فلسطين أيضًا.

وينتقل البحث في جزئه الثاني إلى الحديث عن المناهج التي اتبعها الآثاريون الأردنيون في عملهم منذ القرن التاسع عشر إلى الآن، وينتهي بنظرة استشرافية إلى المستقبل، ترسم المسار المنهجي الذي ينبغي الأخذ به في العمل الأثري الأردني في العقود القادمة.

مناهج علم الآثار في الأردن

أخذ المتصلون، والمشتغلون، والمختصون بآثار الأردن من القرن التاسع بالمناهج الأثرية المختلفة التي سادت في الفترات التي زاروا فيها الأردن واشتغلوا فيه، وفي ما يأتي بيان عام بها:

قسم النقوش، كلية الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك.

تاريخ الاستلام: 10/ 8/ 2022، تاريخ القبول: 20/ 10 / 2022.

المنهج الوصفي الإثنوغرافي Descriptive Ethnographic Approach

كان الحجاج المسيحيون الذين زاروا "البلاد المقدسة" منذ حوالي القرن الثالث الميلادي أول من تتبع الأخبار التوراتية في بلادنا، سعيًا منهم إلى التعرف إليها والتبارك بها، بوصف الأردن وفلسطين البلدين اللذين شهدا الأحداث التوراتية، وسكنها الشخوص الرئيسيون المذكورون في العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس (Davis 2004: 3).

وشهد القرن التاسع عشر نقلة كبيرة في هذا الصدد، فما أن بدأ، حتى قصد الرحالة الغربيون الشرق[1]؛ ساق بعضَهم حبُ الرحلة، لكن أكثرهم جاءها لدوافع سياسية ودينية. فمع بدايات القرن التاسع عشر تجلى ضعف الدولة العثمانية، فطمعت بها الدول الغربية، وبثت رجالها يستطلعون أحوالها. ومن جهة أخرى، حفزت حركات دينية مسيحية بروتستانتية عديدة إلى الاهتمام "بالأرض المقدسة"، وإلى الرحلة إليها، والكتابة عنها. ويسَّر لهؤلاء الرحلةَ إلى الشرق اختراعُ السفينة والقطار البخاريين اللذين سهَّلا السفر (Bartlett 1997: 3-4). ونشط الرحالة الغربيون في شد الرحلة إلى الشرق في صورة خاصة بعد اتفاقية لندن عام 1840 التي وسَّع العثمانيون فيها على الغربيين؛ فأذنوا لهم بدخول دولتهم والإقامة فيها (زيادة 2013: 42).

ومن الرحالة الذين زاروا الأردن في القرن التاسع عشر الألماني أولريش ياسبر زيتسِن Ulrich Jasper Seetzen (1767–1811) الذي جال في الأردن وفلسطين عامَي 1808 و1809، والسويسري يوهان لودفيغ بُركهارت Johann Ludwig Burckhardt (1774–1817) الذي جاء بترا عام 1812، فكان أول من زارها من الغربيين في العصر الحديث، والقنصل الأميركي بالقدس سيلاه ميريل Selah Merrill (1873–1909) الذي جال فيما أسماه مناطق مؤاب، وجلعاد، وباشان في الأعوام 1875–1877 (1881).

أما اهتمام هؤلاء بالآثار فكان جزئيًا، وتفاوت فيما بينهم، لكنه اتسم، عمومًا، بعدة سمات رئيسة، هي:

- اكتفى هؤلاء بوصف الآثار وصفًا، وفي حين وصفها بعضهم وصفًا عامًا، ذكر آخرون تفاصيلها، بل ورسموها، مثلما فعل بُركهارت. ويكتسب بعض هذه الأوصاف اليوم أهمية خاصة، فالرحالة ذكروا آثارًا رأوها في الأردن في القرن التاسع عشر، اندثرت منذ ذلك الحين، مثل بعض حقول الدولمن والحجارة الكبيرة التي أزالها منذ ذلك الوقت العبث وانتشار العمران.
- لم يجر أي منهم تنقيبًا عن الآثار التي رآها.
- لم يتسم عملهم بالمنهجية، فالتفتوا إلى بعض الآثار وتركوا سواها.
- تضمنت أوصافهم ملاحظات إثنوغرافية، وصفت الناس الذين التقوهم.

ومع أن هذه السمات غلبت على أعمال هؤلاء في القرن التاسع عشر، غير أن مؤلفات بعضهم اتسمت بقدر أكبر من المنهجية ومن التتبع للتفاصيل، كأعمال المهندس الألماني الأميركي غوتليب شوماخر Gottlieb Schumacher (1857–1925) الذي وصف عدة مواقع أثرية بشمال الأردن في نهاية ذاك القرن (1881). واقترن هذا التقدم في العمل الأثري بتأسيس معاهد الآثار الغربية بفلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[2].

[1] لن يفيض هذا البحث في الحديث على الرحالة الذين زاروا الأردن في القرن التاسع عشر، ويكتفي بالإحالة إلى مقالة زيدان كفافي في هذا العدد من المجلة الأردنية للتاريخ والآثار المعنونة: "آثار الأردن في تقارير المستكشفين والرحالة الأجانب. مرحلة ما قبل تأسيس إمارة شرقي الأردن في عام 1921م"، وانظر/ي أيضًا (Van der Steen 2019).

[2] انظر/ي مقالة كفافي المذكورة في الحاشية الأولى.

المنهج الثقافي التاريخي Historical Cultural Archaeology

ينطلق هذا المنهج من تصورات ثقافية عقائدية، تستند إلى النصوص الدينية، وما تتضمنه من معلومات، وما تحمله من قيم، ويستند في صورة أكثر تحديدًا إلى نص العهدَين القديم والجديد للكتاب المقدس. واعتمد هذا المنهج في فترة لاحقة، وفي درجة أقل، إلى نصوص الشرق القديم الأخرى، كالنصوص المصرية والأكادية.

ويَعد هذا المنهجُ الثقافي التاريخي النصوصَ الدينية نصوصًا تاريخية، يمكن إثبات صحتها بالبحث في بلدان الشرق المعاصرة عن الأماكن التي ما تزال تتسمى بالاسم نفسه المذكور في النصوص الدينية، أو باسم مشابه، أو التي تقع في مناطق تتفق مع روايات النص المقدس. فالمنطلق في هذا المنهج ليس الموقع الأثري نفسه، ولا ما يجده الآثاري فيه في أثناء التنقيب، وإنما ما ورد في النص الديني عنه. وحدد هذا المنهجُ منذ نهاية القرن التاسع عشر وعبر العقود السبعة الأولى من القرن العشرين المواقعَ التي نقب الآثاريون عنها في فلسطين والأردن، سعيًا إلى إثبات أنها هي عينها المذكورة في العهد القديم (Bartlett 1997: 9).

ولما استند أكثر الآخذين بهذا المنهج إلى نص العهد القديم، أُسمي منهجهم "علم الآثار التوراتي" Biblical Archaeology. وبعد أن كانت التنقيبات غير العلمية التي أجراها الضابط البريطاني تشارلز وارن Charles Warren (1840–1927) في ستينات القرن التاسع عشر بالقدس (1873) هي التي نبهت الجمهور إلى الصلة بين التنقيب الأثري والنصوص التوراتية (Fagan and Durrani 2016: 87-8)، جاء الأميركي وليام فوكسويل ألبرايت William Foxwell Albright (1891–1971) فوضع الأطر المنهجية لهذا المنهج في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين. وساد هذا المنهجُ أكثرَ المشاريع الأثرية الغربية في فلسطين والأردن عقودًا عديدة بعد ذلك، بل وما يزال يأخذ به عدد من الآثاريين اليوم (انظر/ي أدناه). وضربًا في المنهج نفسه، نوه الآثاري الإسرائيلي بنيامين مازار Benjamin Mazar (1906–1995) (1988: 127) بأهمية الآثار في تأكيد صحة النص التوراتي قائلًا: "من الطبيعي تمامًا أن تُنتهز كل فرصة للربط بين الشاهد الأثري والنص التوراتي".

ويعنينا عند الحديث عن المناهج الأثرية في الأردن، أن ننبه بصورة خاصة إلى أن "علم الآثار التوراتي" لم يهدف عند ألبرايت إلى استكشاف آثار فلسطين وحدها، وإنما إلى التنقيب عن كل مكان ورد ذكره في العهد القديم (Albright 1969: 1)، بما في ذلك الأردن، بطبيعة الحال.

وانصبت جهود الآثاريين التوراتيين على إثبات تاريخانية أخبار العهد القديم المتعلقة بموضوعين رئيسين من موضوعات العهد القديم: الأخبار المتعلقة بشخوص الفترة البطريركية، مثل إبراهيم، ويعقوب، وإسحق، ويوسف، والأخبار المتعلقة باحتلال الإسرائيليين القدماء لأرض كنعان بعد خروجهم من مصر. ونضرب مثالًا على هذه الأخيرة جهود أصحاب هذا المنهج في البحث عن آثار احتلال الإسرائيليين القدماء لمدينة "يِرِحوْ" الكنعانية التي ذكرها العهد القديم عند حديثه عن احتلال بني إسرائيل لأرض كنعان وتدميرهم للمدينة (انظر/ي مثلًا: سفر يشوع 5: 13 – 6: 23). فقد قدَّر الآثاريون التوراتيون منذ القرن التاسع عشر أن تل السلطان الواقع غير بعيد عن مدينة أريحا الفلسطينية اليوم هو موقع مدينة "يِرِحوْ" المذكورة في العهد القديم، وراحو ينقبون عن المدينة (Sellin and Watzinger 1913).

وهناك أمثلة عديدة مشابهة، مثل مماهاة الآثاريين الإسرائيليين للطبقات الأثرية التي عثروا عليها في موقع تل القدح "حاصور" بشمال فلسطين بفترات معينة من تاريخ إسرائيل القديمة، كما نعرفه من العهد القديم (Ahlström 1991: 120-21).

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن اهتمام الآثاريين الغربيين بالفترات "التوراتية" أدى بهم إلى تجاهل الفترات الأثرية الأخرى؛ فالآثاريون الإسرائيليون الذين نقبوا في العقود التالية عن المواقع الأثرية بفلسطين، كشفوا في حفرياتهم عن الطبقات التي تتضمن آثارًا يهودية، وتجاهلوا الطبقات الأثرية الراجعة إلى فترات أخرى (Elon 1997: 38).

مقومات المنهج الثقافي التاريخي

اتسم المنهج الثقافي التاريخي بما يأتي:

الوصف: ظل الوصف للمكتشفات من منشآت معمارية وأدوات فخارية وحجرية وسواها هو الأداة الرئيسة في العمل الأثري.

التقسيم الزمني الثلاثي: وهو تقسيم يرجع إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر (Fagan and Durrani 2016: 54-6)، ثم طُبق على التاريخ القديم لجنوبي بلاد الشام، فقسمه إلى ثلاث مراحل: العصور الحجرية، والعصور البرونزية، والعصور الحديدية. ويُلحظ أن الحد بين العصور البرونزية والعصور الحديدية (حوالي 1200 قبل الميلاد) جاء مماثلًا إلى حد بعيد لتقسيم الفترات التاريخية في العهد القديم، فبداية العصر الحديدي (1200 قبل الميلاد) تقع في الفترة نفسها التي بدأ فيها استقرار بني إسرائيل بفلسطين، وبداية العصر الحديدي الثاني (1000 قبل الميلاد)، تماهي بداية فترة تأسيس دولة إسرائيل بفلسطين، بحسب رواية العهد القديم.

التأريخ: اتخذ المنهج الثقافي وسيلتين أساسيتين لتأريخ اللقى الأثرية، هما:

- **الفخار:** اعتمد هذا المنهجُ الدراساتِ التنميطية Typology أساسًا في تأريخ الفخار وتصنيفه؛ إذ إن أشكال الفخار وطرق صناعته اختلفت باختلاف الفترات التاريخية، فكان لكل فترة أنماطها المعينة من الفخار. واستند تصنيف الفخار المكتشف بفلسطين، ومن بعده بالأردن، على الدراسة التنميطية التي وضعها الآثاري البريطاني وليام فلندرز بيتري William Flinders Petrie (1853–1942) للفخار المصري في أواخر القرن التاسع عشر (Fagan and Durrani 2016: 99-100)، وطورها من بعده ألبرايت (Bartlett 1997: 6-7)، وهي الطريقة التي استخدمها نلسون غلوك في ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين في تأريخ الاستقرار في المواقع الأردنية التي وثقها (Glueck 1934, 1935, 1939, 1951).

- **الطبقات الأثرية:** تنبه الآثاريون في أميركا منذ أواخر القرن التاسع إلى أهمية رصد الطبقات الأثرية Stratigraphy وتأريخها، للاستعانة بتاريخها على تأريخ اللقى الأثرية وفهمها (Fagan and Durrani 2016: 110-13). أما في الشرق، فكان بيتري أيضًا من أوائل الآثاريين الذي أرخوا اللقى الأثرية بحسب الطبقات التي وُجدت فيها. وشهدت هذه الطريقة تحسينات عدة خلال العقود التالية، أهمها تقسيم الطبقة الأثرية إلى مربعات، والتي بدأها الآثاري البريطاني مورتِمر ويلر Mortimer Wheeler (1890–1976)، وطورتها الآثارية البريطانية كاثلين كنيون Kathleen Kenyon (1906–1978) في أثناء تنقيبها عن تل السلطان، فيما عُرف فيما بعد بطريقة ويلر – كنيون Wheeler-Kenyon (Bartlett 1997: 8).

التأريخ النسبي: نشأ عن استخدام الأداتين السابقتين، أنماط الفخار وتسلسل الطبقات الأثرية، أن أرخ الآثاريون اللقى الأثرية بالقياس إلى بعضها بعضًا، تأريخًا نسبيًا Relative chronology، فنقول إن الإناء الفخاري (أ) من نمط أبكر من نمط الإناء الفخاري (ب)، دون أن تحدد هذه الطريقة تاريخًا مطلقًا للإناء، كأن نقول إنه صُنع في حوالي

عام 850 قبل الميلاد، مثلًا.

تقنيات التنقيب: تطورت أدوات التنقيب في فترة اتباع المنهج الثقافي التاريخي، فاستخدم الآثاريون آلات التصوير لتوثيق المكتشفات الأثرية، كما استخدموا السجل اليومي لتدوين المجريات والنتائج اليومية للعمل الأثري، كما فعل الآثاري البريطاني جون غارستانج John Garstang (1876–1956) (1948)، مثلًا، في أثناء تنقيباته عن تل السلطان في ثلاثينات القرن العشرين. وفي وقت لاحق، استُخدمت أدوات المساحة أيضًا (Wright 1966).

ولا بد من التنبيه إلى أن المنهج الثقافي التاريخي لم يستخدم في مواقع العصور البرونزية والحديدية المتصلة بأخبار العهد القديم وحسب، وإنما طُبق أيضًا في المواقع الأثرية الراجعة إلى الفترات اللاحقة، مثل الحضارة النبطية في بترا (Horsfield and Conway 1930) والرومانية في جرش (Kraeling 1938).

وشهد الأردن زيادة واضحة في التنقيبات الأثرية في عشرينات القرن العشرين، والتي استخدمت المنهج الثقافي التاريخي مثل تنقيبات المعهد البابوي التوراتي Pontificial Biblical Institute التابع للفاتيكان عن موقع تليلات الغسول الواقع على بُعد خمسة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من الطرف الشمالي للبحر الميت، في الفترة بين عامَي 1929 و1938، بإدارة الأب اليسوعي الفرنسي أليكسِس مَلون Alexis Mallon (1875–1934)، بحثًا عن مدينتَي سدوم وعمورة التوراتيتين (Mallon, Koeppel, and Neuville 1934) .

تزعزع المنهج الثقافي التاريخي

ظل المنهج الثقافي في علم الآثار المنهج السائد في العمل الأثري في العالم حتى ستينات القرن الماضي، حين حل محله تدريجيًا "علم الآثار الجديد"، المسمى أيضًا، "علم الآثار الإجرائي"، كما سنبين أدناه. وساهمت عوامل عدة في عزوف الآثاريين عن اتباع المنهج الثقافي التاريخي، من أهمها الأسباب الآتية:

1- رأت بعض المدارس اللاهوتية أن علم الآثار التوراتي الأميركي (مدرسة ألبرايت) لم يتسم بالحياد والموضوعية. ففي حين رأى غلوك، مثلًا، "أن نتائج التنقيبات الأثرية لم تخالف يومًا الروايات التوراتية" (31: 1959)، رفض لاهوتيون ألمان أن يطرح المنقبُ أسئلةً أثرية انطلاقًا من روايات العهد القديم، ثم أن يبحث في الموقع الأثري عما يثبت صحتها، ومن أهم هؤلاء مارتن نوت Martin Noth (1902–1968) (1960: 270, n.1)، الذي شكك بذلك في الركيزة الأساسية لعلم الآثار التوراتي، وهو استخدامه للقى الأثرية لتأكيد الروايات التوراتية (Davis 2004: 125).

2- من جهة أخرى، ظهرت تفسيرات لاهوتية أخرى للتاريخ البطريركي ولقصة احتلال الإسرائيليين لأرض كنعان، نفت تاريخية روايات العهد القديم في هذا الخصوص، كالدراسات التي وضعها اللاهوتي الدنماركي ثوماس ثومسون Thomas Thompson (1939–) واللاهوتي الكندي جون فان سترز John van Seters (1935–) (Davis 2004: 140-142).

3- وضربًا في النهج نفسه، نقض الأميركي جورج مندنهول George Mendenhall (1916–2016) الرواية التوراتية عن احتلال الإسرائيليين لأرض كنعان، عندما وضع نظريته عن الثورة الاجتماعية، قائلًا إن الإسرائيليين طبقة اجتماعية محلية من المجتمع الكنعاني، تمردت على النظام الاقتصادي الاجتماعي السائد في أثناء العصر البرونزي المتأخر، ودعت إلى عبادة "يهوه"، بدلًا من "إيل" إله الطبقات المسيطرة في المجتمع (1973)، فنفى مندنهول بذلك كل

صلة بين قصص العهد القديم والمواقع الأثرية بفلسطين التي كان علم الآثار التوراتي يبحث فيها عما يثبت صحة قصة احتلال الإسرائيليين لأرض كنعان. وفيما بعد، طور الأميركي نورمان غوتفالد Norman Gottwald (1926–2022) نظرية مندنهول، مضفيًا على الصراع الاجتماعي الذي افترضه هذا بُعدًا طبقيًا انطلاقًا من مفاهيم ماركسية (1979).

4- كما كشف الاشتغال الميداني بالتنقيب الأثري الدرجة العالية من التعقيد التي ينطوي عليها تفسير الطبقات الأثرية وما يظهر فيها من لقى أثرية، فتبين للآثاريين أن التنقيب الأثري انطلاقًا من أخبار العهد القديم ومن سؤال واحد، مثل: هل هذا التل هو نفسه الموقع الفلاني المذكور في العهد القديم؟ فيه تبسيط شديد للواقع الأثري، فلا يتفق مع طبيعة السياق الأثري الذي يتسم عادة بالتبعثر والإبهام، فلا يمكن استخدام المعلومات الأثرية للإجابة على أسئلة علم الآثار التوراتي (Bartlett 1997: 9). وكان في مقدمة هؤلاء الآثاريين الأميركي وليام ديفر William Dever (1933–) الذي تتلمذ للآثاريين التوراتيين بفلسطين، ولكنه عاد فدعا إلى النظر إلى آثار فلسطين من زاوية أعم، تشمل آثار سوريا الكبرى كلها، فيما أسماه "علم الآثار السوري الفلسطيني Syro-Palestinian Archaeology (Dever 1992: 354-67)، والذي يجيب عن الأسئلة التي يطرحها علم الآثار الأنثروبولوجي Anthropological Archaeology، كما هو ممارس في الولايات المتحدة (Dever 1974: 31). ونستدل على التحول الكبير عن منهج الآثار التوراتي بأن أستاذ ديفر، الأميركي جورج إرنست رايت George Ernest Wright (1909–1974) الذي كان يُعد قطبًا رئيسًا لعلم الآثار التوراتي تحول هو نفسه في أواخر حياته عن هذا المنهج (Davis 2004: 137-38).

علم الآثار الجديد، علم الآثار الإجرائي New Archaeology, Processual Archaeology

بحلول ستينات القرن العشرين، نضج ما يسمى "بعلم الآثار الجديد"، أو "علم الآثار الإجرائي"، ويمثل هذا العلم صورة علم الآثار كما عرفته الولايات المتحدة الأميركية آنذاك؛ والذي قام على استنطاق المادة الأثرية بطرح أسئلة نابعة من طبيعة المادة المستكشفة، وليس من تصورات مسبقة. وقال هذا المنهج في الوقت نفسه، بأن وجود فريق أثري مكون من أصحاب تخصصات مختلفة سيؤدي حتمًا إلى طرح عدد أكبر من الأسئلة، وينتهي إلى تقديم عدد أكبر من الإجابات، أكثر مما يمكن للمشتغلين بالمنهج الثقافي التاريخي الإتيان به (Davis 2004: 135).

وقد اتسم هذا المنهج بسمتين أساس، هما:

- استعانته بالعلوم التطبيقية في تأريخ اللقى الأثرية، وتحديد أماكن صناعتها وطرقها.

- حل التأريخ المطلق Absolute chronology مكان التأريخ النسبي، نتيجة لاستعانة علم الآثار الإجرائي باختبارات علمية، وفي مقدمتها الفحص باستخدام النظير المشع للكربون 14، والذي يتيحُ تأريخ عمر المواد العضوية تأريخًا مطلقًا بالسنوات، وطريقة تأريخ المواد غير العضوية، مثل الحجارة، المسماة طريقة الأرجون بوتاس (Fagan and Durrani 2016: 148-49, 189, 200).

- لم يعد الشكل الخارجي للإناء الفخاري هو الأساس في التمييز بين أنواع الفخار، وإنما أُضيف إلى ذلك معايير أخرى، مثل مكونات التربة التي صُنع منها الإناء ودرجة شَيه، مثلًا (Fagan and Durrani 2016: 166).

- في مرحلة لاحقة، استعان علم الآثار بعلوم أخرى، مثل علوم الطب، والبيطرة، والنبات، والمناخ، والجيولوجيا، فنشأت فروع لتلك العلوم تختص بدراسة المكتشفات الأثرية، مثل تاريخ الجسم البشري Physical Anthropology،

وعلم النبات القديم Palaeobotany، وعلم الحيوان القديم Zooarchaeology، وعلم المناخ القديم Palaeoclimate، وعلم الفيزياء الجيولوجية Geophysics، فاستعان علم الآثار بها لفهم علاقة الإنسان بالبيئة القديمة، وباقتصاداتها، وطرق الحياة فيها (Fagan and Durrani 2016: 142-43).

- وبناء على هذا الإقرار بأثر البيئة في الاستقرار البشري، لم يعد الموقع الأثري وحده محل اهتمام علم الآثار الإجرائي، وإنما حل محله الحيز الأثري الأوسع المحيط بها، والذي يشمل مواقع أثرية عدة، ما أتاح فهمًا أفضل لتأثير العوامل البيئية في فهم الاستقرار والتطور البشريين (Fagan and Durrani 2016: 210).

وأفضى الأخذ بهذه الأدوات العلمية الدقيقة إلى استنطاق اللقى الأثرية نفسها للحكم على طبيعة المواقع المكتشفة، وتأريخها، وتحديد علاقتها بسواها من المواقع، فتراجعت المساحة التي كان يتخذها الإطار الثقافي التاريخي، أي النص الديني، في الإجابة على هذه الأسئلة، وبات النص أداة واحدة من الأدوات العديدة التي يستعين بها الآثاري، وليس المنطلق الفكري الذي يصدر عنه.

- والسمة الثانية التي اتسم بها هذا المنهج هو أخذه بالنظريات الأنثروبولوجية الثقافية؛ ونتجت عن ذلك نقلة كبيرة في علم الآثار، فصار الآثاري ينظر إلى المجتمع بوصفه جماعة بشرية متفاعلة مع بعضها بعضًا، تحكمها المصالح والصراعات، في المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، كما تحكم المصالح والصراعات علاقات المواقع بعضها ببعض، وبات علم الآثار معنيًا بفهم طبيعة المجتمعات القديمة وتفاعلاتها مع بيئتها المحيطة، في الزراعة وإدارة الموارد المائية مثلًا، ومع بيئتها الاجتماعية، مثل علاقات الجماعات بعضها ببعض، والكشف عن الصراعات داخل المجتمع الواحد، وطبيعة العلاقات الأسرية، وهكذا (Bartlett 1997: 9). ولم يعد علم الآثار يرى في المجتمع القديم كتلة سكانية ثابتة، لا تتأثر إلا بالمؤثرات الخارجية، كالغزو الخارجي، أو الكوارث الطبيعية، كالزلازل والأوبئة. ونشأ لهذه الغاية علم جديد، يسعى إلى فهم المجتمعات القديمة بمقارنتها بمثيلاتها المعاصرة التي ما تزال تعيش عيشة تقليدية (Bartlett 1997: 10)، أُسمي "علم الآثار الإثنولوجي" Ethno-archaeology. وساهم هذا التحولُ إلى النظرية الأنثروبولوجية، هو أيضًا، في هدم الأسس التي قام عليها علم الآثار الثقافي، فلم يعد من المقبول النظر إلى المجتمعات القديمة على أنها تلك التي صورها لنا النص الديني، بسيطة التركيب، يمكن النظر إلى أهلها من بُعد واحد (مثل الإيمان بإله أو الكفر به)، في تجاهل كامل للمعطيات الاقتصادية للمجتمع، أو للصراعات الطبقية فيه، مثلًا.

صراع المناهج: تل حسبان مثالًا

بدأ التنقيب عن تل حسبان عام 1967 بدعم من جامعة أندروز Andrews University الأميركية بالتعاون مع المدارس الأميركية للأبحاث الشرقية، واختارت الجامعة التنقيب عنه، لأنها افترضت أن تل حسبان المعاصر هو موقع مدينة "حِشْبوْن" المذكورة في سفرَي العدد والتثنية في العهد القديم، بوصفها عاصمة الملك الأموري "سيحون"، ضمن الأخبار عن مرور بني إسرائيل بتلك المنطقة قاصدين أرض كنعان التي وعدهم إلههم بها. واستند الآثاري الأميركي سيغفريد هورن Siegfried Horn (1908–1993) في فرضه هذا إلى وجه الشبه بين لفظتَي "حِسْبان" العربية و"حِشْبوْن" العبرية، وإلى أن الأخبار التوراتية تصف أحداثًا جرت غير بعيد عن موقع تل حسبان المعاصر (LaBianca 1993: 25).

غير أن البعثات الأثرية ذات المنطلق الديني التي نقبت عن التل مواسم عدة في السنوات حتى عام 1977 لم تعثر على ما يؤكد هذه الفرضية، بل على العكس، فقد فوجئت تمامًا عندما وصلت قاع التل، ووجدت أن تل حسبان لم يكن مأهولًا في أثناء العصر البرونزي المتأخر، وهي الفترة التي يُفترض أنها شهدت عبور بني إسرائيل من منطقة حسبان في طريقهم إلى فلسطين. وكان لهذا الاكتشاف أثر كبير في كشف هشاشة الأسس التي يقوم عليها المنهج الثقافي التاريخي في العمل الأثري، مما دفع الأجيال التالية من الآثاريين الذين واصلوا التنقيب عن تل حسبان إلى هجرة هذا المنهج، والأخذ بمنهج علم الآثار الإجرائي الذي قد كان بدأ بالانتشار في العالم كله في سبعينات القرن العشرين. بل يمكن القول إن مشروع التنقيب عن تل حسبان هو الذي أدخل منهج الاستعانة بالعلوم المتعددة في دراسة الآثار. وشمل هذا التحول من المنهج الثقافي إلى المنهج الإجرائي، في مرحلة لاحقة، مشاريع التنقيب الأثري في سهول مادبا كلها، بدرجة أو بأخرى، والتي كانت قامت بها منذ ثمانينات القرن العشرين جامعات أميركية وكندية في مواقع تل العميري، وتل جلول، وتل مادبا، وتل جاوا، وذلك لأن حملات التنقيب عن تل حسبان ضمت عددًا كبيرًا من طالبات وطلاب الآثار الذين تدربوا في المنهج الإجرائي في تنقيبات تل حسبان، ثم نقلوها إلى المواقع الجديدة التي نقبوا عنها (LaBianca 1993) (Davis 2004: 135).

علم الآثار ما بعد الإجرائي Post-processual Archaeology

في الثمانينات ومطلع التسعينات من القرن العشرين، ظهرت توجهات منهجية جديدة في علم الآثار، تُجمع تحت مسمى "علم الآثار ما بعد الإجرائي"، على الرغم من أنها لا تمثل خطًا علميًا واحدًا، وقد بدأها الآثاري البريطاني أيان هُدر Ian Hodder (1948-) وتلامذته. ويشترك هذا المنهج مع منهج علم الآثار الإجرائي في كثير من الوجوه، غير أنه يخالفه في بعض المسائل، ومن أهمها دعوته إلى أخذ الفروق الفردية في السلوك الإنساني للأفراد والجماعات بعين الاعتبار، فهو يخفف من سطوة نظريات علم الآثار الإجرائي القائلة إن المعطيات البيئية، مثلًا، هي التي تحدد السلوك البشري، فأي تغير في المناخ، مثلًا، يستتبع ضرورة ، بحسب علم الآثار الإجرائي، تغيرًا محددًا في سلوك الجماعات البشرية. ويخفف منهج علم الآثار ما بعد الإجرائي أيضًا من قدرة نظريات الأنثروبولوجيا الثقافية على التعميم، فيقول إن بعض الأفراد، أو بعض الجماعات، قد تتصرف تصرفات فردية، خلافًا للتوقعات التي تفرضها النظرية الأنثروبولوجية الاجتماعية. ويرى هذا المنهج، إلى ذلك، أن السجل الأثري متعدد الأصوات، فينبغي على الآثاري أن يبحث فيه عن صوت المرأة، وصوت الطفل، وصوت عوام الناس (Fagan and Durrani 2016: 228).

علم الآثار التوراتي الجديد

على الرغم من تزعزع الأسس التي قام عليها المنهج الثقافي التاريخي في الآثار منذ منتصف القرن العشرين، إلا أن بعض البعثات الأثرية الأجنبية ما تزال تنقب عن مواقع أثرية بالأردن لدوافع دينية. ويُلحظ، على أية حال، أن هذه البعثات، وإن صدرت في عملها الأثري عن منطلقات عقائدية، شأنها شأن سابقاتها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، إلا أنها تختلف عنها في أنها تستعين في عملها اليوم بالفحوص العلمية التطبيقية في إثبات النتائج التي تريد الوصول إليها. والأمثلة على بعثات التنقيب ذات الدوافع الدينية عديدة، أحدها فريق التنقيب الأميركي عن تل الحمَّام في الأغوار الجنوبية الذي يسعى لإثبات أن تل الحمَّام هو موقع "سدوم" التوراتي، متكئًا على فحوص مخبرية متقدمة

جدًا (Bunch, LeCompte, Adedeji, et al. 2021). ويشبه ذلك الأبحاث التي يجريها حاليًا عشرون باحثًا إسرائيليًا لتحديد مواقع المعارك "الإسرائيلية" في العصر الحديدي مستعينيين بدراسة المجال المغناطيسي للأرض، مستخدمين أحدث الوسائل العلمية (Vaknin et al. 2022). فهذه المشاريع، وإن استخدمت الوسائل العلمية الحديثة، إلا أنها تقع منهجيًا ضمن المنهج الثقافي التاريخي الذي ساد في النصف الأول من القرن العشرين، والذي ينطلق من النص الديني وليس من المعطيات الأثرية.

المناهج الآثارية عند علماء الآثار الأردنيين

مرافق ودليل

لم يلتفت الأردنيون في القرن التاسع عشر إلى الآثار القديمة في بلدهم إلا يوم نبههم الغربيون إليها، ولم يهتموا بها رغبة منهم بمعرفة آثارهم وأهميتها ودلالتها، فلم يزد اشتغالهم بها على مصاحبة الغربيين الذين قصدوا زيارة الآثار في الأردن وحمايتهم. ومن أمثلة ذلك، مرافقة سطام الفايز في ستينات القرن التاسع عشر للراهب فرديرك أغسطس كلاين Frederik Augustus Klein (1827–1903) إلى ذيبان لمشاهدة حجر ميشع (Horn 1983: 500)، ومنهم أيضًا الأدلاء الذين رافقوا ميريل في جولاته (1881:263). ونعرف أن نلسون غلوك اكتفى في تنفيذ مشروعه الضخم لمسح المواقع الأثرية في الأردن وتوثيقها، والذي بدأ عام 1929، بمرافقَين محليين وحسب (أبو طالب 2006: 8).

عامل وفني

مع أن التنقيبات والمسوح الأثرية زادت زيادة ملحوظة في الأردن في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين، كما بينا أعلاه، إلا أن مساهمة الأردنيين في الكشف عن آثار بلادهم لم تختلف حينذاك اختلافًا كبيرًا عن مساهمتهم في القرن التاسع عشر، واكتفت مشاريع التنقيب الأجنبية بالاستعانة بالسكان المحليين ليعملوا عمالًا في التنقيبات الأثرية وحسب، وإن كان بعض هؤلاء اكتسب معرفة ميدانية كافية، حفزت المنقبين الأجانب إلى الاستعانة بهم لمواسم متتالية، أو في مواقع متعددة أحيانًا.

ولم يزد تأسيس دائرة الآثار العامة الأردنية في عشرينات القرن العشرين من دور الأردنيين في دراسة آثار بلدهم زيادة ذات بال؛ إذ ظل دورهم محصورًا، إلى حد بعيد، في المتابعة الإدارية لمشاريع التنقيب والمسح الأثري الأجنبية. ولعل تولي البريطاني جيرالد لانكستر هاردنغ Gerald Lankester Harding (1901–1979) إدارة دائرة الآثار العامة الأردنية لربع قرن تقريبًا، من 1933 إلى 1956، ساهم في تأخير انخراط الأردنيين في الأعمال الأثرية الميدانية.

الجهود العربية في دراسة آثار الأردن

لا بد أن ننوه هنا إلى أن العمل الأثري في الأردن في هذه الفترة تضمن مساهمة عربية، تمثلت بجهود آثاريَين فلسطينيَين في دراسة آثار الأردن والترويج لها، هما الدكتور (الطبيب) توفيق كنعان المقدسي الذي درس المسميات الطبوغرافية في بترا (Canaan 1930)، وتعريف الآثاري ديمتري برامكي، الذي كان كبير الآثاريين في دائرة الآثار الفلسطينية بآثار الأردن عامة، وبترا في صورة خاصة (Baramki 1952).

مهني و أكاديمي

جاء أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من القرن العشرين بتطورين رئيسين غيَّرا شكل الاشتغال الأردني بعلم الآثار، فمن جهة، تسلم أردني عام 1956 لأول مرة منذ ثلاثينات القرن نفسه إدارة دائرة الآثار العامة الأردنية، بعد إعفاء الأردن لهاردنغ من مهامه، ما أتاح المجال لتأهيل الكوادر الأردنية في الدائرة على نحو أوسع. ومن جهة ثانية، تأسست الجامعة الأردنية عام 1962، وتأسس فيها قسم للتاريخ والآثار،عمل على بناء الكفاآت المحلية في هذين المجالين.

ولكن، لم ينعكس التغيير في دائرة الآثار العامة على مساهمة الأردنيين في دراسة آثار بلادهم سريعًا، كما يُستدل على ذلك من المقالات المنشورة في حولية الدائرة؛ إذ لا تكشف فهارس الحولية عن أية مساهمة أردنية في العمل الأثري قبل العدد السادس والسابع المشترك، الصادر عام 1962، ففيه نجد مقالات مكتوبة بالإنجليزية للدكتور عوني الدجاني الذي تولى إدارة الدائرة من عام 1959 حتى وفاته عام 1968، ودأب منذ هذا العدد على نشر أجزاء من رسالته للدكتوراة عن العصر البرونزي الأوسط في أعداد الحولية التالية. ويمثل حصول الدجاني على درجة الدكتوراة تحولًا رئيسًا في اشتغال الأردنيين بعلم الآثار، فلم تعد معرفتهم بالآثار مبنية على اكتساب الخبرة العملية بإشراف المنقبين الأجانب وحسب، وإنما صارت قائمة على معرفة أكاديمية أيضًا. ونجد في العدد نفسه مقالتين لفرح معايعة ولرفيق عوني الدجاني، تدلان على اشتغال أردني بالآثار. وتوالت مساهمات الأردنيين في السنوات اللاحقة، ومما يستحق التنويه أن العدد التالي من الحولية الصادر عام 1964 اشتمل على ملخصات مستفيضة باللغة العربية عن "الحفريات الأثرية في شرقي الأردن" لمحمود العابدي، في مخاطبة صريحة للجمهور العربي المعني بتتبع نتائج المشاريع الأثرية الجارية في الأردن.

ويلفت النظر في الأعداد التالية، مساهمات لفوزي زيادين الذي شارك في التنقيبات الأثرية الفرنسية في موقعي تل بلاطة وسبسطية. وبحلول عام 1971، ظهرت مساهمات لعدد لا بأس به من أبناء الجيل الأول من الآثاريين الأردنيين الذين انضموا إلى دائرة الآثار العامة، فبالإضافة إلى الذين سبق ذكرهم، تظهر أسماء صفوان التل، وعدنان الحديدي، وسليمان دعنا، ويوسف العلمي، ومعاوية إبراهيم، ومحمد مرشد خديجة.

تمثل الجيل الأول من الآثاريين الأكاديميين الأردنيين بمجموعة من الشباب الذين حازوا درجاتهم العلمية العليا من جامعات أوروبا وأميركا (ابتعثت أكثرهم دائرة الآثار العامة والجامعة الأردنية)، وكان أولهم الدكتور عوني الدجاني، وتلاه الدكتور معاوية إبراهيم (جامعة برلين الحرة، 1970)، والدكتور فوزي زيادين (جامعة السوربون، 1971)، والدكتور عدنان الحديدي، والدكتور محمود أبو طالب (جامعة بنسلفينيا، 1973)، والدكتور عاصم البرغوثي، والدكتور محمد خير ياسين (جامعة شيكاغو، 1974)، والدكتور صفوان التل (جامعة إستانبول، 1974)، والدكتور نبيل الخيري (جامعة لندن، 1975)، والدكتور غازي بيشه (جامعة ميشغان، 1979) (غصيب، عبد النور، والمومني 1993: 22). ويُلحظ، على الرغم من وجود هؤلاء، أن اللذين توليا إدارة الدائرة بعد الدكتور الدجاني كانا رجلَي سياسة وإدارة، وهما ميخائيل جميعان ويعقوب عويس، وليسا من المختصين بالآثار، ولم يتول أكاديميون أردنيون إدارة دائرة الآثار العامة الأردنية بعد ذلك حتى عام 1977، حين صار الدكتور عدنان الحديدي مديرًا لها.

من كل منهج زهرة

يوم بدأ الآثاريون الأكاديميون الأردنيون العمل في التنقيب والبحث الأثريين، في ستينات وسبعينات القرن العشرين، كان المنهج الثقافي التاريخي في طريقه إلى الأفول، وبدأ منهج الآثار الإجرائي بالحلول محله. لكن الآثاريين الأردنيين

لم يكونوا، شأن الآثاريين الغربيين، مثقلين بعبء المنهج الثقافي التاريخي، إذ كانوا متحررين من الانحياز الثقافي الذي وقعت فيه مشاريع التنقيب الأثرية الغربية في العقود الستة الأولى من القرن العشرين، فهم لم ينطلقوا في تنقيباتهم من منطلقات دينية، ولم يسعوا إلى إثبات صحة الأخبار التوراتية. وأتاح لهم هذا الموقف حرية التوجه إلى دراسة أرحب للعصور الأثرية، تجاوزت دراسة العصور البرونزية والحديدية، فنقبوا عن مواقع العصور الحجرية (الدكتور زيدان كفافي، جامعة برلين الحرة، 1982، والدكتور مجاهد المحيسن، جامعة بوردو، 1988، والدكتور حمزة محاسنة)، والنبطية والكلاسيكية (الدكتور نبيل الخيري والدكتور زيدون المحيسن، جامعة السوربورن، 1986)، والإسلامية (الدكتور غازي بيشه، والدكتور عبد الجليل عمرو 1981، والدكتور صالح ساري، جامعة ميشغان، 1986). كما اختص بعضهم بالكتابات القديمة (الدكتور صبري العبادي، جامعة توبنغن 1982، والدكتور فواز الخريشة، جامعة ماربورغ 1986)، أو بالمسكوكات (الدكتور خلف الطراونة، جامعة القاهرة 1989).

ومع ذلك، فقد أخذ هؤلاء في أعمالهم الميدانية بالطرق التقليدية في التنقيب، وظلوا أسارى الفهم الثقافي التاريخي الذي درسوه في جامعات غربية أخذت به طويلًا، ولكن ذلك لا ينفي أنهم بدأوا، مطلع السبعينات، بالاطلاع على مناهج علم الآثار الإجرائي بعض اطلاع. وفي الحقيقة، فإن التقانات الحديثة في الآثار استُخدمت في وقت مبكر في الأردن، وذلك في الدراسات التي أُجريت على مخطوطات البحر الميت، ففي عام 1951 استُخدمت طريقة التأريخ بالنظير المشع للكربون 14 في تأريخ المخطوطات (العابدي 2010: 77)، كما استُحضرت في الستينات إلى متحف آثار فلسطين بالقدس آلات تصوير تعمل بالأشعة تحت الحمراء لتصوير المخطوطات (al-Ghul 2011: 91).

وساهم الاتصال بالآثاريين الغربيين الذين كانوا ينقبون عن المواقع الأثرية في الأردن، أو يدرِّسون في مؤسساته، في تعريف الآثاريين الأردنيين بالمنهج الإجرائي وأدواته. ونضرب مثالًا على هؤلاء الدكتور موري ب. نيكول Murray B. Nicol، الذي نشر عام 1969مقالة في حولية دائرة الآثار العامة، عنوانها: Archaeology and Scientific Technology، عرَّف فيها، في هذا الوقت المبكر، بتقانات تكنولوجية مستخدمة في علم الآثار. ويبدو أن هذا الباحث أدرك أنه يتناول بابًا غير مطروق بعد في دائرة الآثار العامة وفي الجامعة الأردنية، فقال في الحاشية الأولى من مقالته:

This article is dedicated to all young aspiring archaeologists in the Department of Antiquities and the University of Jordan with whom the author has discussed and taught his supject (*sic*) while on leave from Harvard University during the Fall, 1969.

هذا المقال مهدى لكل الآثاريين الشباب الطموحين بدائرة الآثار وبالجامعة الأردنية الذين تناقش المؤلف معهم ودرَّسهم مساقه في أثناء إجازته من جامعة هارفارد في الفصل الدراسي الأول من عام 1969.

من جهة أخرى، تجد أثرًا مبكرًا للنظريات الأنثروبولوجية الثقافية في مؤلفات الآثاريين الأردنيين في مقالة لمعاوية إبراهيم (Ibrahim 1978)، ناقش فيها شكل الآنية الفخارية المسماة "الجرار ذات الياقة" Collared rim jars، وخلص إلى أنه جاء استجابة للمعطيات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع آنذاك، وليس تعبيرًا عن انتماء صانعيها لهوية إثنية معينة، كما قال علم الآثار الثقافي التاريخي.

الاستعانة بالعلوم التطبيقية في الآثار

كان من أثر الاطلاع على علم الآثار الإجرائي أن تنبه المشتغلون الأردنيون بالآثار إلى أهمية دراسة العلوم التطبيقية في الآثار Archaeometry، فكان أول هؤلاء الدكتور لطفي خليل الأسطة (جامعة لندن، 1980) وتلته

الدكتورة خيرية عمرو التي تخرجت في الجامعة نفسها عام 1986.

وشهدت أواخر التسعينات من القرن العشرين تطورًا كبيرًا في الاستعانة بالعلوم التطبيقية في الآثار في الأردن، يوم أدخلت كلية الآثار والأنثروبولوجيا بجامعة اليرموك في عملها العلوم التطبيقية في الآثار ، ومفهوم "إدارة الموارد الثقافية" Cultural Resources Management، المتصلين اتصالًا وثيقًا بمنهج علم الآثار الإجرائي، وكان الرائد في ذلك الدكتور زياد السعد من الجامعة (جامعة لندن، 1992)، ثم تلتها في ذلك الجامعة الهاشمية والجامعة الأردنية؛ فصارت مفاهيم، مثل التأريخ باستخدام النظير المشع للكربون 14، أو فحص المواد الأثرية لمعرفة تقانة صناعتها أو موطنها الأصلي، أو دراسة العظام البشرية والحيوانية، أو دراسة البيئة الطبيعية القديمة، بما في ذلك النبات والحيوان القديمين، معروفة في البحث الأثري المحلي.

وصار مفهوما "إدارة المواقع التراثية" و"صيانة المكتشفات الأثرية" مفهومين أساسين لدى الآثاريين الأردنيين. بل ودخلت العلوم المتصلة بعلم الآثار الإجرائي في الخطط الدراسية الجامعية التي وُضعت مطلع القرن الحادي والعشرين. وعزز انتشارَ التقانات الأثرية والإدراك لأهميتها استخدامُ بعثات التنقيب الأجنبية لها في مشاريعها التي أجرتها في الأردن (Crawford et al. 1986).

ولكن، نعود هنا فنذكر بما قلناه أعلاه من أن الجيل الأول من الآثاريين الأكاديميين الأردنيين، وعلى الرغم من أنه درس في جامعات غربية أخذت بمناهج علم الآثار الإجرائي بدرجات متفاوتة، إلا أن ذلك لم ينعكس على أعمالهم الميدانية، فقد ظلوا يتبعون المناهج التقليدية في التنقيب، دون الاستعانة بالوسائل التقنية الحديثة. وظلت تقاريرهم وصفية إلى حد بعيد، ولم يستعينوا، في العموم، بالنظريات الأنثروبولوجية الثقافية في تفسير الظواهر الأثرية التي اكتشفوها (Yassine 1984) (ساري 1993).

مناهج في خطوط متوازية

في التسعينات وما بعدها، ساد البحث الأثري الأردني واقع لافت للنظر: آثاري ينقب بالطرق التقليدية، ويريد أن يفيد، في الوقت نفسه، من العلوم التطبيقية في الآثار، فسار التعاون بين أفراد هذين الفريقين، في أغلب الأحوال، في خطين متوازيين؛ أي أن يعهد الآثاري الآخذ بمناهج التنقيب التقليدية بعد التنقيب إلى مختص بالعلوم التطبيقية في الآثار لدراسة ما يكتشفه في الموقع الأثري من فخار، أو مواد معدنية، أو زجاجية، دراسة مخبرية، دون أن يكون هذا المختص شريكًا أصلًا في صياغة الأسئلة التي طرحها مشروع التنقيب الأثري قبل البدء به، وإنما تضاف نتائج دراسته إلى نتائج التنقيب الأثري، دون أن تصبح، ضرورةً، جزءًا عضويًا من رواية متماسكة تحكيها المكتشفات الأثرية في الموقع مجتمعة. وشاع في هذه الدراسات استخدام الوسائل العلمية الحديثة لتأريخ المكتشفات الأثرية (Al-Bashaireh 2011)، وتحديد موطنها الأصلي (Al-Bashaireh 2013).

ويمكن القول إن اكتفاء المنقبين الأردنيين – وغير الأردنيين – بإعداد التقارير الأولية عن أعمالهم الميدانية، أبقى البحث الأثري الأردني – والدولي في كثير من الحالات – حبيس المستوى الوصفي، دون الغوص إلى مستوى التحليل والمقارنة، وأُلحقت بالتقرير الوصفي، في كثير من الحالات، نتائج الفحوص باستخدام العلوم التطبيقية في الآثار إلحاقًا، بغرض زيادة رصيد المنقب من النشر العلمي.

أما علم الأنثربولوجيا الثقافية، فلم يحقق الإضافة المرجوة منه كما يفترضها علم الآثار الإجرائي؛ إذ حصر المشتغلون

فيه اهتمامهم، عمومًا، بدراسة المجتمعات المعاصرة (Tarawneh and Naamneh 2011)، دون المجتمعات القديمةالتي خلفت الآثار التي ينقب عنها الآثاري.

في الوقت نفسه، ساهم المشتغلون بالأنثروبولوجيا العضوية مساهمة أكبر في دراسة المخلفات الأثرية، خاصة أولئك الذين شاركوا البعثات الأجنبية في أعمال التنقيب الأثري (Al-Shorman 2010)

وشهد علم الكتابات القديمة توسعًا كبيرًا في المسوح الميدانية والنشر العلمي (الخريشة 2002؛ Bader 2009؛ الحراحشة 2010؛ Zoubi 2018)، ومثلما هو الحال في التنقيبات الأثرية، جاء أكثر الدراسات وصفيًا تقريريًا، ولكنك تجد إلى جانب ذلك بعض الدراسات التحليلية (Hayajneh 2006؛ المعاني 2010؛ Ababneh 2015).

وشهد علم المسكوكات نهضة ملحوظة في الأردن منذ ثمانينات القرن العشرين، بفضل جهود سمير شما (1911–2001) ودعمه، والذي ساهم في تأسيس مجلة "اليرموك للمسكوكات" وفي تأسيس كرسي سمير شما لدراسة المسكوكات والحضارة الإسلامية". وبعد وفاة شما، تحول أكثر الاشتغال بالمسكوكات في الأردن إلى متحف البنك الأهلي للنميات بإشراف الدكتور نايف القسوس، وظل مستمرًا حتى بعد وفاته (القسوس، الزيود، ونغوي 2014؛ الزيود 2017).

نظرة استشرافية

حقق علم الآثار الأردني إنجازات عديدة في العقود الماضية، فبالإضافة إلى وجود مختصين أردنيين في العصور الأثرية المختلفة، باتت العلوم التطبيقية في الآثار مستخدمة على نطاق واسع في دراسة الآثار، وتجرى فيه تنقيبات أثرية بكفاءات محلية، لا تقل شأنًا عن التنقيبات الأجنبية (Al-Nahar 2018; Kafafi 2019). لكن هذا التقدم والإنجاز ما يزال، في العموم، مقصرًا عن المستوى الدولي في علم الآثار. وهناك توجهات وإجراءات يمكن اتخاذها لتحقيق مزيد من التقدم:

1- ينبغي أن ينطلق مشروع التنقيب الأثري من أسئلة علمية، لا تنحصر في موقع التنقيب، وإنما تشمل سياقه الأعم في المنطقة التي يوجد فيها.

2- ينبغي أن تتكاتف علوم عدة في طرح الأسئلة وفي الإجابة عليها،فعلى المنقب الاستعانة بالعلوم الرديفة لعلم الآثار، ولا أقصد العلوم التطبيقية في الآثار وحسب، فهذه باتت مستخدمة على نطاق واسع في علم الآثار الأردني، كما بيّنا أعلاه، وإنما أضيف إلى ذلك أيضًا:

- علم الأنثروبولوجيا الثقافية، وخاصة في صورتها في علم الآثار ما بعد الإجرائي، والتي تستقرأ من السجل الأثري الحركة الداخلية للمجتمع، من صراعات وتعاون وتكافل، ودور كل من المرأة والرجل، ودور الطفل، ودراسة الحيز الأثري ووظائفه، وطبيعة الحياة اليومية وتفاصيلها، وسوى ذلك من المسائل ذات البعد الاجتماعي (LaBianca 2007).
- علم التاريخ عند دراسة الفترات التاريخية في المواقع الأثرية، فالوضع العلمي القائم في الأردن اليوم غير مقبول من هذه الناحية؛ إذ يعمل الآثاريون والمؤرخون في استقلال تام عن بعضهم بعضًا، في تجاهل تام لمساهمة المخلفات الأثرية في فهم الوثائق التاريخية، ولمساهمة الوثائق التاريخية في فهم المخلفات الأثرية.
- يُضاف إلى ذلك كل العلوم التي يمكن أن تساهم في المكتشفات الأثرية، مثل تاريخ الفن، وتاريخ الأديان، وعلم المناخ القديم، وعلم الزلازل الأثري، وعلم البيئة القديمة.

3- لا بد من النظر إلى تاريخ الأردن بوصفه كلًا متكاملًا لا فواصل أو قواطع فيه. فإذا كان قانون الآثار الأردني الذي وضعه البريطانيون قد جعل عام 1750 حدًا فاصلًا بين "الآثار" و"التراث"، فلا يجوز أن يمتد هذا الفصل إلى الدراسة الأكاديمية أيضًا، فينبغي أن ينظر الآثاري إلى تاريخ أي موقع من المواقع بوصفه خطًا مستمرًا، وإلا انفصلت المجتمعات المعاصرة الساكنة في الموقع أو في جواره عن ماضيها، وامتنع علينا وضع سردية شاملة، تقص حكاية المواقع الأثرية في الأردن من أقدم الفترات حتى العصر الحديث. ومن الأمثلة الحسنة على تجاوز هذه الحواجز الوهمية الدراساتُ للمعطيات الاجتماعية والتاريخية الحديثة في تل حسبان، والتي تصل بين ماضيه وواقعه (LaBianca 1995).

4- بعد هذا، لا بد من ضم هذه البيانات كلها بعضها إلى بعض، واستنطاقها مجتمعة، وهذا الدور يمكن أن تؤديه التقارير النهائية للتنقيب الأثري، والتي تجمل ما نعرف عن الموقع الأثري، وتضعه في سياقه الأثري بالقياس إلى المواقع المجاورة والمعاصرة، بحيث تتجلى خصوصية الموقع، من جهة، ووجوه التقائه بسواه من المواقع، من جهة أخرى.

5- ينبغي أن تكون خلاصة هذا كله سردية تاريخية متماسكة لكل موقع أثري ومحيطه، تتوسع لتشمل المواقع المنقب عنها كلها، ولتصبح سردية تاريخية متكاملة للوطن.

لا بد أن تصب هذه المعرفة في شكل مبسط وسهل في الوعي الجمعي للمجتمع الأردني، وذلك بتحويل النتائج التي يتوصل إليها علماء الآثار إلى رواية لتاريخ الوطن، تتخذ شكل برامج إعلامية، مقروءة، ومسموعة، ومرئية، باستخدام الوسائل كلها، بما فيها وسائل التواصل الاجتماعي، وأن تصبح جزءًا من المناهج المدرسية.

مجلّد 16، العدد 3، 2022م
(عدد خاص) مئوية الدولة الأردنية



Archeological Approaches in Jordan From 1800 Until Now

Omar A. Al-Ghul*

ABSTRACT

Since the early nineteenth century, individuals interested in the antiquities of Jordan investigated, documented, and interpreted the archaeological finds they encountered or excavated in this country. Their approaches developed over time, not only due to the advancement of scientific methods and tools, but also because during the last two centuries major changes affected the religious and political motivations of western archaeology in the southern Levant. In the first part, the paper traces the basic elements of these developments and their intellectual background and, in a second part, it outlines the methods Jordanian archaeologists utilized to engage with their own cultural heritage over the same period. The paper concludes with recommendations for Jordanian archaeologists that would pave the way for a state-of-the-art investigation of Jordanian antiquities, on the one side, and for a proper appreciation of the contribution of Jordanian archaeology to the Jordanian cultural identity, on the other.

Keywords: *Ethnography, Processual Archaeology, Husban, Biblical Archaeology, Archaeometry*.

* email: ghul@yu.edu.jo, (Omar A. al-Ghul) Orcid number: https://orcid.org/0000-0002-0957-6538, Department of Epigraphy, Faculty of Archaeology and Anthropology, Yarmouk University, Jordan.

Received on 10/8/2020 and accepted for publication on 20/10/2022.

المصادر والمراجع العربية

أبو طالب، محمود (2006)؛ *من السلط إلى القدس. أبحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم*. ترجمة عمر الغول، تحرير عمر الغول وعفاف زيادة، عمان: المقتبس.

حراحشة، رافع (2010)؛ *نقوش صفائية من البادية الأردنية. دراسة وتحليل*، عمان: ورد.

الخريشة، فواز (2002)؛ *نقوش صفوية من بيار الغصين*، إربد: جامعة اليرموك.

زيادة، عفاف (2013)؛ رسم خريطة فلسطين وسياسات البحث الأثري منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. رسالة ماجستير غير منشورة، إربد: جامعة اليرموك.

الزيود، حسن (2017)؛ *عصر هارون الرشيد من المصادر التاريخية والمسكوكات*، عمان: متحف البنك الأهلي للنميات.

ساري، صالح (1993)؛ الأبنية المعمارية في خربة دوحلة / النعيمة في شمالي الأردن: دراسة أثرية. *العصور* 8: 267–87.

العابدي، محمود (2010)؛ *مخطوطات البحر الميت*. مراجعة وتقديم عمر الغول، إربد: جامعة اليرموك.

غصيب، همام، عبد النور، سميرة، المومني، حيدر (1993)؛ *دليل أعضاء هيئة التدريس في الجامعة الأردنية (لغاية 1992/9/30)*، عمان: الجامعة الأردنية.

القسوس، نايف، الزيود، حسن، نغوي، عايدة (2014)؛ *المسكوكات الإسلامية غير المنشورة والنادرة*، عمان: متحف البنك الأهلي للنميات.

كفافي، زيدان (2022)؛ آثار الأردن في تقارير المستكشفين والرحالة الأجانب. مرحلة ما قبل تأسيس إمارة شرقي الأردن في عام 1921م

المعاني، سلطان (2010)؛ *الهوية الحضارية في النقوش العربية القديمة*، عمان: وزارة الثقافة.

ميريل، سيلاه (1881)؛ *شرق الأردن. سجل رحلات وملاحظات في بلاد مؤاب وجلعاد وباشان*، ترجمة محمد رفيق النجار، عمان: الأهلية.

REFERENCES

Arabic References

al-ʻAbidi, Mahmud (2010); *The Dead Sea Scrolls*. Review and Introduction by Omar al-Ghul. Irbid: Yarmouk University.

Abu Talib, Mahmud (2006); *From al-Salt to al-Quds. Studies in the Ancient History of Jordan and Palestine*. Translated by Omar al-Ghul, edited by Omar al-Ghul and ʻAfaf Ziyadeh. Amman: al-Muqtabis.

Ghusayb, Hammam, Samirah ʻAbd al-Nur, Samirah and Haydar al-Mu'mani, (1993); *Guide to the Educational Staff in the University of Jordan (up to 30,09.1922)*. Amman: University of Jordan.

Harrahishah, Rafiʻ (2010); *Safaitic Inscriptions from the Jordanian Steppe. Study and Analysis*. Amman: Ward.

al-Khraysheh, Fawwaz (2002); *Safaitic Inscriptions from Biyar al-Ghasay*. Irbid: Yarmouk University

al-Maʻani, Sultan (2010); *Civilizational Identity in the Ancient Arabic Inscriptions*. Amman: Ministry of Culture.

Merrill, Selah (1881); *East of the Jordan*. Muhammad Rafiq al-Najjar, translator. Amman: al-Ahliyah

al-Qusus, Nayif, Hasan al-Zuyud, and ʻAida Naghwa (2014); *Rare and Unpublished Islamic Coins*. Amman. Numismatics Museum of the Ahli Bank.

Sari, Saleh (1993); Architectural Buildings in Khirbat Duwahlah / al-Nuʻaymah in Northern Jordan. An Archaeological Study. *Al-ʻUsur* 8:267-287.

Ziyadeh, ʻAfaf (2013); *Drawing the Map of Palestine and the Politics of of Archaeological Research Since the Nineteenth Century Until the Middle of the Twentieth Century*. MA Thesis, Yarmouk University.

al-Zuyud, Hasan (2017; *The Age of Harun al-Rashid from Historical Sources and Coins*. Amman: Numismatics Museum of the Ahli Bank.

Ababneh, M. I. (2015); "Sacrifice in the Safaitic Inscriptions in the Light of New Evidence". *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae*, Vol. 68, Pp. 29-48.

Ahlström, G. W. (1991); "The Role of Archaeological and Literary Remains in Reconstructing Israel's History". In *The Fabric of History. Text, Artifact and Israel's Past*. D. V. Edelman ed. Pp. 116-42, Sheffield: Journal for the Study of the Old Testament Press.

Albright, W. F. (1969); "The Impact of Archaeology on Biblical Research – 1966". In *New Directions in Biblical Archaeology*. D. N. Freedman and J. C. Greenfield eds. Pp. 1-14, Garden City, NY.: Doubleday.

Bader, N. (2009); *Inscriptions de la Jordanie – tome 5 La Jordanie du nord-est*. Paris: Ifpo.

Baramki, D.C. (1952); *The Road to Petra. A Short Illustrated Guide to East Jordan.* Jerusalem: The Commercial Press.

Bartlett, J. R. (1997); "What has Archaeology to do with the Bible – or vice versa?". In *Archaeology and Biblical Interpretation.* J. R. Bartlett ed. Pp. 1-19, London: Routledge.

Al-Bashaireh, Kh. (2011); "Provenance of Marbles from the Octagonal Building at Gadara "Umm-Qais", Northern Jordan". *Journal of Cultural Heritage*, Vol. 12, Pp. 317-22.

Al-Bashaireh, Kh. (2013); "Plaster and Mortar Radiocarbon Dating of Nabatean and Islamic Structures, South Jordan". *Archaeometry*, Vol. 55, Pp. 329-54.

Bunch, T. E., LeCompte, M. A., Adedeji, A. V. *et al.* (2021); "A Tunguska Sized Airburst Destroyed Tall el-Hammam a Middle Bronze Age City in the Jordan Valley Near the Dead Sea", *Sci Rep*, Vol. 11, https://doi.org/10.1038/s41598-021-97778-3.

Canaan, T. (1930); *Studies in the Topography and Folklore of Petra*. Jerusalem: Bait al-Maqdis Press.

Crawford, P.; Ferguson, K.; Gilliland, D.; Hudson, T.; LaBianca, Ø. and Lacelle, L. (1986); *Hesban. Environmental Foundations: Studies of Climatical, Geological, Hydrological, and Phytological Conditions in Hesban and Vicinity*. Berrien Springs: Andrews University.

Davis, T. W. (2004); *Shifting Sands. The Rise and Fall of Biblical Archaeology*. Oxford: Oxford University Press.

Dever, W. G. (1974); Archaeology and Biblical Studies: Prospects and Retrospects. The Winslow Lectures. Evanston, IL: Seabury-Western Theological Seminary.

Dever, W. G. (1992); "Archaeology, Syro-Palestinian and Biblical". In *Anchor Bible Dictionary* I. D. N. Freedman ed. Pp. 354-67, New York: Doubleday.

Elon, A. (1997); "Politics and Archaeology". In *The Archaeology of Israel. Constructing the Past, Interpreting the Present*. N. A. Silberman and D. Small eds. Pp. 34-47, Sheffield: Sheffield Academic Press.

Fagan, B. M. and Durrani, N. (2016); *A Brief History of Archaeology: Classical Times to the Twenty-First Century*. London: Routledge. 2nd edition.

Garstang, J. and Garstang, J. B. E. (1948); *The Story of Jericho.* London: Morgan and Scott.

Al-Ghul, O. (2011); "The Ostracon". In *Umm Al-Biyara. Excavations by Crystal M. Bennett in Petra 1960-1965*. P. Bienkowski ed. Pp. 85-92, Oxford: Oxbow.

Glueck, N. (1934); "Explorations in Eastern Palestine." *Annual of the American Schools of Oriental*

Research 14.

Glueck, N. (1935); "Explorations in Eastern Palestine, II." *Annual of the American Schools of Oriental Research* 15.

Glueck, N. (1939); "Explorations in Eastern Palestine, III." *Annual of the American Schools of Oriental Research* 19–21.

Glueck, N. (1951); "Explorations in Eastern Palestine, IV." *Annual of the American Schools of Oriental Research* 25–8.

Glueck, N. (1959); *Rivers in the Desert: A History of the Negeb*. New York: Farrar, Cudahly, and Strauss.

Gottwald, N. (1979); *The Tribes of Yahweh: A Sociology of the Religion of Liberated Israel, 1250-1050 B.C.E.* Maryknoll, NY: Orbis.

Hayajneh, H. (2006); "The Nabataean Camel Burial Inscription from Wadi Ram/Jordan (Based on a drawing from the archive of Professor John Strugnell)". *Die Welt des Orients*, Vol. 36, Pp. 104-15.

Horn, S. (1983); "The Discovery of the Moabite Stone". In *The Word of the Lord Shall Go Forth. Essays in Honor of David Noel Freedman in Celebration of His Sixtieth Birthday*. C. L. Meyers and M. O'Conner eds. Pp. 497-505, Winona Lake: Eisenbrauns.

Horsfield, G. and Conway, A. (1930); "Historical and Topographical Notes on Edom: with an Account on the First Excavations at Petra". *The Geographical Journal*, Vol. 76, Pp. 369-90.

Ibrahim, M. (1978); "The Collared-Rim Jar from the Early Iron Age". In *Archaeology in the Levant. Essays for Kathleen Kenyon*. R. Moorey and P. Parr eds. Pp. 116-26, Aris and Phillips.

Kafafi, Z. (2019); "Late Neolithic Settlement Patterns in Wādī az-Zarqa (6th and 5th Millennia BC)". In *Studies in the History and Archaeology of Jordan*, F. Balaawi and P. P. Creasman eds. Vol. 14, Pp. 123-34.

Kraeling, C. H. (1938); *Gerasa. City of the Decapolis*. New Haven: American Schools of Oriental Research.

LaBianca, Ø. S. (1993); "The Journey from Heshbon to Hesban: An Account of the Evolution of the Heshbon Expedition's Scope of Research". In *Hesban after 25 Years*. D. Merling and L. T. Geraty eds. Pp. 25-37, Berrien Springs: Andrews University.

LaBianca, Ø. S. (1995); "On-Site Water Retention Strategies. Solutions from the Past for Dealing with Jordan's Present Water Crisis". In *Studies in the History and Archaeology of Jordan*, Kh. 'Amr, F. Zayadine and M. Zaghloul eds. Vol. 5, Pp. 771-75.

LaBianca, Ø. S. (2007); "Great and Little Traditions: A Framework for Studying Cultural Interaction Through the Ages in Jordan". In *Studies in the History and Archaeology of Jordan*, F. al-Khrayshah ed. Vol. 9, Pp. 275-89.

Mallon, A., Koeppel, R. and Neuville, R. (1934); *Teleilat Ghassul I: compte rendu des fouilles de l'Institut Biblique Pontifical: 1929-1932*. Rome: Pontifici Instituti Biblici.

Mazar, B. (1988); "Israeli Archaeologists". In *Benchmarks in Time and Culture: An Introduction to Palestinian Archaeology Dedicated to Joseph A. Callaway*. J. F. Drinkard Jr., G. L. Mattingly and J. M. Miller eds. Pp. 109-28, Atlanta: Scholars Press.

Mendenhall, G. (1973); *The Tenth Generation: The Origins of the Biblical Tradition*. Johns Hopkins University.

Al-Nahar, M. (2018); "The Neolithic site of Tell Abu Suwwan, Jerash". In *The Archaeology and History of Jerash, 110 Years of Excavations.* R. Raja and A. Lichtenberger eds. Pp. 7-14, Brepols.

Nicol, M. B. (1969); "Archaeology and Scientific Technology", *Annual of the Department of Antiquities of Jordan*, Vol. 14, Pp. 23-7.

Noth, M. (1960); *The History of Israel*. Translated by S. Godman. London: Adam and Charles Black. 2nd edition.

Schumacher, G. (1881); *Northern 'Ajlûn, within the Decapolis*. London: Alexander P. Watt.

Sellin, E. and Watzinger, C. (1913); *Jericho. Die Ergebnisse der Ausgrabungen.* Leipzig: Hinriches.

Al-Shorman, A. (2010); "Diagenesis of the Skeletal Remains in Four Archaeological Sites in Northern Jordan". *Jordan Journal of History and Archaeology*, Vol. 4, Pp. 202-17.

Tarawneh, M. and Naamneh, M. (2011); "Urbanization and Social Identities in Jordan: The Case of Irbid". *Journal of Comparative Family Studies*, Vol. 42, Pp. 615-35.

Vaknin, Y., Shaar, R. Lipschits and Ben-Yosef, E. (2022); "Reconstructing Biblical Military Campaigns using Geomagnetic Field Data". *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, Vol. 119, Pp. 1-7.

Van der Steen, E. (2019); "The Archaeology of Jordan: A Condensed History". *Journal of Eastern Mediterranean Archaeology and Heritage Studies*, Vol. 7, Pp. 149-64.

Warren, Ch. (1873); *The Recovery of Jerusalem: A Narrative of Exploration and Discovery in the City and the Holy Land*, W. Morrison et al. eds. New York: Appelton.

Wright, G. R. H. (1966); "A Method of Excavation Common in Palestine". *Zeitschrift des Deutschen Palästina-Vereins*, Vol. 82, Pp. 113-24.

Yassine, Kh. (1984); "The Open Court Sanctuary of the Iron Age I Tell el-Mazār Mound A". *Zeitschrift des Deutschen-Palästina-Vereins*, Vol. 100, Pp. 108-118.

Zoubi, M. (2018); *New Safaitic Inscriptions from Jordan*. Amman: Ward.